التعليم فى مصر

الحاجة الى اصلاحه عاجلا

«وستوالى حكومتى عنايتها باصلاح نظام التعليم العام و التعليم
«الفني من صناعى و زراعى و تجارى ليساير حاجات البلاد فى
«نهضتها العامة (من خطاب العرش فى ١١ شهر يناير
«سنة ١٩٣٠)

حول تقرير المستر مان Mr. F.O.Mann الخبير الذى انتدبته الحكومة المصرية لفحص نظام التعليم فى مصر وقد قدم تقريره فى شهر نوفمبر الماضى

لاريب أن التعليم فى مصر من أهم المسائل التى تواجه الحكومة الحاضرة وما قد يليها من حكومات إذ هو فى الحق إما أن يكون عاملا قويا لخيرها (أى خير مصر) وإما — لاقدر الله — معولا قاسيا فى خرابها ودمارها

ومع أن مصر قد توصل الى عقد معاهدة مع انجلترا تضمن بها استقلالها ، فانها لن تستطيع المحافظة على هذا الاستقلال إلا اذا أصلحت أساس التعليم فيها ليتسنى لها أن تستوفى حاجتها من عقول بنيها اسوة بغيرها من الأمم المتمدينة التى تجد فى عقول أبنائها ما يغنيها عن التماس العون من أبناء أمة أخرى مما يشعر الأمة المستعينة بالصغار والانحطاط عن تلك الأمة الأخرى التى تقدم لها المعونة .

والمصريون يدركون هذه الحقائق ادراكا تاما تجلى أثره مراراً وتكراراً على صفحات الصحف و على ألسنة الناس حتى فى أشد الايام حلكة عندما كان الامر و النهى فى وزارة المعارف — لابل فى كافة الوزارات والمصالح — للرؤساء الانجليز . فكنت لا تفتأ تسمع التذمر من كل جانب من سياسة دنلوب التعليمية التى لم يكن يقصد بها الا اخراج أنصاف أو أرباع متعلمين لا هم لهم إلا التربع فى وظائف الحكومة يحركهم الرؤساء الانجليز كما يحرك لاعب الشطرنج قطعه . . . ولم من صيحات على صفحات الصحف ومن فوق المنابر نادت بوجوب اصلاح التعليم فذهبت مع الرياح !! ولكننا الآن نجتاز مرحلة لانغالى إذا وصفناها بأنها شائكة ، لاينجينا منها إلا أن تحرز من الاصطدام بأشواكها حتى نقف مرفوعى الرءوس . وهذا لن يكون إلا باصلاح التعليم

ولقد انتدبت وزارة المعارف العمومية فى العام الماضى مستر مان لفحص نظام التعليم الابتدائى والثانوى والفنى والصناعي والمعلمين ، فقضى هذا الخبير نحو عام يبحث ويفحص ويدقق ثم قدم تقريره فيما يقرب من ١٤٠ صفحة كلها ناطقة بعدم صلاحية نظام التعليم الحالى منادية بوجوب اصلاحه « ليساير حاجات البلاد فى نهضتها العامة » (خطاب العرش)

ومما لفت اليه التقرير النظر بوجه خاص أن « المدارس التى تسير على نهج الطريقة الاوروبية سواء كانت إبتدائية أو ثانوية توجه جل اهتمامها إن لم يكن كله نحو انجاح أكبر عدد ممكن من التلاميذ في الثلاثة الامتحانات العامة التى تقيمها وزارة المعارف فى كل عام لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية » . ثم أشار إلى الاهمية الكبرى التى يعلقونها — التلاميذ وآباؤهم — على احراز الشهادات إلى حد أن النجاح أو الفشل فى احرازها لاول مرة فى دخول الامتحانات العامة ، يبقى صفة ملازمة للناجح أو الفاشل طول حياته : فيقال دائما ان فلانا نجح فى جميع الامتحانات بغير فشل ولا سنة واحدة ، أو فشل فلان فى امتحان سنة كذا . ولسنا نجد دليلا على تأثر الجماهير بهذه الظاهرة أقوى مما تنشره الصحف عقب ظهور نتائج الامتحانات العامة من أخبار انتحار التلاميذ الذين لم يجوزوها ، ومن رأى مستر مان أن نتيجة ذلك هى أن « الآباء المصريين يترسمون خطى آلهة التعليم الزائف » . ثم تذهب الجماهير حاملة على الحكومة منادية بوجوب زيادة الفصول والاماكن فى المدارس الثانوية أكثر من حملهم عليها لزيادة المحلات فى المدارس الابتدائية ، وحجتهم فى ذلك أن الطالب يجب أن يداوم على الدرس والتحصيل بسرعة حتى يتكون لديه المحصول الكافى ، وقبل أن ينساه ، ليجوز الامتحانات . فتكون النتيجة أنه بدلا من أن يعم التعليم جميع أبناء الامة يصبح قاصرا على فئة قليلة من خريجى المدارس الثانوية

ومما لاحظه مستر مان أن نفقات التعليم العالى فى مصر تزيد كثيرا على نفقات التعليم الابتدائى ، وذكر على سبيل المقارنة أن انجلترا — وهى أمة صناعية وأكثر حاجة الى التعليم العالى — تنفق عليه جنيها واحدا مقابل كل أربعة جنيهات تنفقها على التعليم الابتدائى بينما ان ما تنفقه مصر هو جنيه واحد على التعليم الابتدائى مقابل كل جنيهين تنفقهما على

التعليم العالى ، بل ان ميزانية سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥ التى بلغ ما أنفق منها على التعليم بأنواعه مليونان ونصف المليون من الجنيهات لم ينفق منها على التعليم الابتدائى إلا خمس (جزء من خمسة) هذا المبلغ ، ويرى مستر مان أن المدارس الابتدائية يجب أن تتسع لمليون ونصف مليون طالب وهى لا تسع فى الوقت الحاضر أكثر من ٥٣١ر٠٠٠ تلميذ . إن حاجتنا الى انتشار التعليم الابتدائى أشد ما تكون فى الوقت الذى أصبح نظام حكومة مصر فيه ديموقراطياً نيابياً على أساس الانتخاب المباشر

ولم يفت مستر مان ما ضج المصريون منه بالشكوى منذ أعوام طويلة . فذكر أن التعليم الثانوى الذى تطمح اليه أنظار الطلاب الذين يجوزون مرحلة التعليم الابتدائى يعتبره هؤلاء الطلاب وسيلة للدخول فى خدمة الحكومة التى هى غاية ما تؤمل فيه أكثريتهم ، والسبب فى الميل لخدمة الحكومة وتفضيلها على سواها ، هو الضمان الذى يشعر به موظف الحكومة دون أن يضطر إلى الكفاح والمنافسة اللازمتين فى غير وظائفها

وهنا يحمل مستر مان على نظام التعليم الاوروبى حملة شعواء إذ يقول : « ثمة كثيرون من الصرعى يقعون أثناء الصعود الشاق إلى المناصب الرفيعة ، وهذا هو نتاج الطريقة الاوروبية التى تقذف فى كل عام عدداً متزايداً منهم فتتراكم البقايا فوق بعضها من حطام كانوا تلاميذاً فأصبحوا عاجزين عن مواصلة السير بالحياة فى الطريق التى هيأوا أنفسهم لها فى الصغر (باعتبار أنها تنتهى بهم إلى الوظيفة الحكومية) كما أصبحوا من الجهة الاخرى عاجزين عن أن يجدوا عملا يتفق مع آمالهم ورغائبهم — سواء كان من ناحية الكرامة أو من حيث المرتب — خارجاً عن نطاق الوظائف الحكومية . . . فالمشكلتان الاجتماعية والسياسية اللتان تنجمان عن هذه الحالة تهددان بخطر عظيم لا سيما فى المدن الكبيرة فى القطر المصرى . أضف الى هذا أن الوالد المصرى ، الذى يقضى عدداً من السنين منكراً على نفسه كل متاع فى الحياة ليحسن مستقبل ابنه بواسطة المدارس . فلا يلبث أن يجده عالة عليه ، حقيق بأن يرثى له ، حرى بأن يكون عبرة لآباء المستقبل »

وانتقل مستر مان بعد ذلك الى الكلام فى توسيع برنامج التعليم باضافة مواد

جديدة الى المواد الكثيرة التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية ، فصرح بأنه يرى أن ولاة الامور المصريين لم يعنوا بالبحث بدقة عما اذا كان التلامذة المصريون يسيغون تلك المواد الاضافية ، فترتب على ذلك أن زادت نفقات التعليم لتخريج فئة هى « غصص فى الحلوق ، وحمول على الاكتاف ، بدلا من أن تكون عوناً للبلاد وعضداً لها »

التعليم الصناعى

وعندنا عدا المدارس الثانوية - التى يتجه التعليم فيها إلى تثقيف العقول تثقيفاً أدبياً وعلمياً — المدارس الصناعية التي قد يظن أنها تخرج شباناً صالحين لمزاولة الاعمال الحرة . . أليس من أعجب العجب أنه حتى خريجى تلك المدارس يتطلعون إلى خدمة الحكومة كأنها الغاية القصوى التى تطمح اليها آمالهم ؟! فهم لا يختلفون فى هذا عن أترابهم خريجى المدارس الثانوية ، كلاهما لا يطمئن الى الاعتماد على نفسه فى الاعمال الحرة بل يظهر أنها تلقى الرعب فى فؤاده

ويقول المستر مان إن نتيجة ذلك هى انعدام الجو الصناعى فى مصر إذ « أن الصانع الذى لا يستطيع أن يخرج عملا صناعياً يعود بربح تجارى مناسب لا يقبل على استخدامه مصنع يريد أن يبقي بعيداً عن محاكم الافلاس ، والمدارس الصناعية فى مصر لا تنشىء خريجيها وفق مطالب المصانع الحرة وحاجتها من السرعة والدقة فى العمل » . أضف الى هذا أن خريج المدرسة الصناعية فى مصر يزدرى نظام العمل تحت الاختبار مبدئياً — بعد خروجه من المدرسة حاملا الشهادة — حتى يعد نفسه للمنافسة فى الصنائع الحرة ، مع أن هناك صناعاً غير متعلمين ولكنهم قد اكتسبوا بواسطة الخبرة وحدها دراية فى عملهم تفوق دراية خريجى المدارس الصناعية . . على أن ما هو أدهى وأمر هو أن المدارس الصناعية عندنا تدخل فى العطاءات التى تعلن عنها بعض مصالح الحكومة متقدمة فى المناقصات بأسعار أقل بكثير من الاسعار التى تقبل بها المصانع الحرة ؛ ثم تقوم بالعمل بنفقات اكثر بكثير من قيمة العطاء المقدم فى المناقصة ! ! فبينا هي ترمى إلى تدريب تلاميذها على الصناعات المطلوبة من جهة إذا بها من الجانب الآخر تلقنهم أسوأ مبادىء الاقتصاد حتى إذا قضوا مدة التعليم وتخرجوا منها لم يجدوا من يقبل خدمتهم سوى بعض

المصالح الحكومية . أما الصنائع الحرة فانهم يصبحون حرباً عليها بدلا من أن يكونوا عضدالها

ثم ما قولك فى أن احصاء التلاميذ فى العام الماضى تبين منه أن هناك ٦١٣١ طالباً فى المدارس الصناعية و ١٠٦٧ طالباً فى المدارس التجارية بينما أنه بالرغم من أن مصر بلد زراعى أولا و قبل كل شىء ، فليس فى مدارسها الزراعية المتوسطة سوى ٦١٦ طالباً ؟ !

ليضع القارىء هنا ما شاء من علامات استفهام وتعجب . . .

مدارس المعلمين:

أما مدارس المعلمين عندنا بمختلف درجاتها وانواعها فمن رأى مستر مان ان « الغذاء العقلى الذى تقدمه لطلبتها لايسمن ولا يغنى من جوع » وإذن فلا عجب اذا كانت الدروس التى يلقيها خريجو تلك المدارس على الطلبة تقابل من هؤلاء بالضجر والملل بل بالكراهة . وماذا ينتظر من مدرس — أو حتى ناظر مدرسة — يتقاضى راتبا أقل من رواتب كثير من الخدم فى البيوتات الكبيرة !! أليس من أكبر دواعى انحطاط مستوى الطلبة عندنا أنهم يتلقون العلم على أيدى أمثال اولئك المدرسين الخاملين ؟ ويقول مستر مان فى وصفهم انهم إذ يتخطون دور الطفولة والدراسة الى دور الحياة العملية لايكلفون أنفسهم مشقة التفكير فى أعمالهم بل « يقون فى انتظار تعليمات رؤسائهم لتأدية واجباتهم كما تنتظر أرض مصر شهر ابريل من كل سنة ليجود عليها النيل بمائه فيخصب تربتها » وما ذلك إلا لأن التلاميذ عندنا « لايمرنون التمرين الكافى على الملاحظة والتأمل ؛ ولا يقومون بعمل الاختبارات بأنفسهم ليتدربوا على الابتكار مع أن هاتين المسألتين أهم بكثير من جلوسهم الساعات الطوال منصتين للدروس التى تلقى عليهم كأنهم خشب مسندة . إذ أنه لا شك أن هذه الطريقة — مهما تكن الدروس معدة بأقصى عناية — تربيهم على الخمول ، وتفقدهم حب البحث والتنقيب لتفهم أحوال العالم اكتفاء بما يصل اليهم على أيدى معلميهم أولا ثم على أيدى رؤسائهم فيما بعد »

وزارة المعارف

ويشير مستر مان فى تقريره الى انه كان يجب على وزارة المعارف أن تسير بنظام بيروقراطى فى أول مرحلة من مراحل تعميم التعليم ثم تتطور بعد ذلك الى نظام اللامركزية فيختص كل قسم منها بالاشراف على الفرع التابع له من مختلف أنواع التعليم العلمى والادبى والتجارى والزراعى والصناعى ، أما أن يسير التعليم فى جميع انحاء القطر على وتيرة واحدة وطبقاً لبرنامج معلوم فانه يؤدى الى تخريج نوع واحد من المتعلمين ، حال ان الامم لا ترتقى إلا بتنوع تعليم ابنائها وتخصص كل فريق منهم فى هذا الفرع أو ذاك . يقول مستر مان « أن التلميذ البدوى فى المدرسة الابتدائية فى الصحراء يتلقى نفس البرنامج من العلوم الذى يتلقاه زميله الطالب فى المدرسة الابتدائية الواقعة فى أشد الاحياء تفرنجا فى القاهرة والاسكندرية . لافرق مطلقا بين التعليم فى الريف وبينه فى المدن » . ولاشبهة أن هذا اسوأ استعمال للتعليم بالطريقة الاوربية . ومن الواجب على مجالس المديريات أن يعنى كل منها بالاشراف على شؤون التعليم الابتدائى فى مديريته ، وتبقى القاهرة والاسكندرية مركزين للارشاد والاشراف العام وللجامعات العليا يتخرج بها من يظهر عليه الاستعداد لمواصلة التعليم حتى مرحلته الأخيرة .

ولما كان العمل مترا كما فى وزارة المعارف فأنها رأت تخفيفاً لوطأته ان توحد برامج التعليم الى حد انها جعلت برنامج تعليم البنات مطابقا تمام المطابقة لبرنامج تعليم البنين على مافى هذه النظرية من خطأ ظاهر إذ أن البنات يجب أن يتعلمن الخياطة وما اليها من الاعمال المنزلية التى يتوقف على درايتهن بها وحذقهن لها صلاح البيت وهو اذا صلح صلحت الامة بأمرها

مسألة اللغة : و قد عنى المستر مان فى قسم كبير من تقريره بمسألة اللغة عناية خاصة فقال أن الطفل المصرى يسمع ويتكلم فى البيت والشارع بل وفى المدرسة ذاتها لغة غير التى يكتبها و يتعلم بها . والسبب فى هذا هو أن اللغة العامة ـ أو العامية ـ لاضابط لها من قواعد نحو أو صرف فضلا عن أنها تختلف اختلافا بينا عن اللغة العربية الفصحى التى هى لغة الكتب والصحف والخطابة . فينشأ من ذلك أن يجد الطالب

نفسه مضطرا فوق دراسة اللغتين الانجليزية والفرنسية أو احداهما الى دراسة لغة أخرى هى اللغة الرسمية لبلاده

وفى الحق أن مسألة اللغة فى مصر — كما هى فى بلدان أخرى — أصبحت من أهم المعضلات التى تشغل اذهان المفكرين حيث أن الخلاف بين لغة التخاطب ولغة الكتابة يؤدى حتما الى اجهاد العقول بالتفكير فى وسائل للتعبير يفهمها المتعلمون تعليما عاليا والاقل منهم درجة أو درجات حتى يستفيد كل قارىء الفائدة المرجوة من كد القرائح وثمرات العقول فى الموضوع ذاته لافى اللغة لاغير ، ولا مشاحة فى أن اضطرار الانسان للتخاطب بلغة غير التى يستعملها فى الكتابة يؤدى الى ضعفه — نسبيا — فى اللغتين ، وذلك بعكس ما اذا كانت هناك لغة واحدة للتخاطب والكتابة معا فيصبح الكاتب قادراً على التعبير فى أى موضوع بلغة يفهمها القارىء كما يفهمها المخاطب (بفتح الطاء) فتكون الافادة والاستفادة اعم وأسرع مما هى الآن حيث تختلف كل من اللغتين عن الاخرى اختلافا كبيرا الى حد انه يصعب الجمع بينهما فيجهد الكاتب والمتكلم نفسيهما فى أحيان كثيرة جهدا شاقا للتعبير عن معنى من المعانى قد يصرفهما عن أصل الفكرة أو يضعف تفكيرهما فيها فتتناقص الفائدة المرجوة من الكتابة أو الخطابة بقدر مايصرف من الجهد فى الوصول الى تعبير عربى صحيح او عامى دارج لايصال الفائدة الى القارىء أو المستمع

ولا نكران أن الافكار فى مصر متجهة نحو تعميم استعمال اللغة العربية الفصحى فى التخاطب والتعامل والكتابة على السواء ، وهذا لو تم فانه ولا شك يجىء بنتائج حسنة ويحقق رغبة المصلحين ويساعد مساعدة جدية على سرعة انتشار الثقافة والحضارة ؛ لكن دون ذلك التعميم مصاعب ومتاعب جمة . لذلك يرى مستر مان أن تؤلف لجنة خاصة يناط بها وضع قواعد للتقريب بين اللغتين جهد الطاقة لانه يكاد يكون من المستحيل تعميم اللغة العامية — وهى لغة التخاطب — إذ أن اللغة الفصحى تحمل بين طياتها ثروات طائلة يعتبر ضياعها خسارة فادحة ليس من السهل تعويضها

أما تدريس اللغات الأجنبية فى المدارس المصرية فقد لاحظ مستر مان ان المدرسين المصريين الذين يقومون بتدريس اللغة الانجليزية غير خبيرين بأصول النطق بها ،

كما لاحظ أن هناك افراطا كثيرا فى تدريس روايات شكسبير وهذه وان لم يكن ثمة أدنى شك فى نفاستها فان صعوبتها تزيد فى العناء الذى يقاسيه الطلبة ، وربما كان الافضل أن يترك درس امثال هذه المقطوعات العالية فى الادب للاستعداد الشخصى الذى يكون لدى هذا الطالب أو ذاك

خاتمة

وختم مستر مان تقريره بالاشارة إلى وفرة المواد التى تحتوى عليها برامج التعليم ويرى أن ذلك الافراط من شأنه أن يقوى الذاكرة على حساب الذكاء.

فأملنا أن تسارع حكومة الشعب الحاضرة باصلاح نظم التعليم فتؤدى بذلك جل خدمة لمصر تساعدها على تحقيق استقلالها

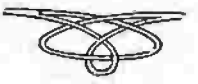

ظهر حديثا

كتاب

الأدب الحى

تأليف

ابراهيم المصرى

مجموعة مقالات وابحاث فى الأدب والنقد مذيلة بقصة ودراما مسرحية . وتطلب من جميع المكاتب وخاصة مكتبة الوفد بباب اللوق لصاحبها محمد محمود